بسم الله الرحمن الرحيم

صناعة الرجال عند الشيخ عدون

من خلال مقالاته في جرائد أبي اليقظان

محمد داود تمزغين

للصحافة أثر كبير في توجيه الناس ومتابعة الأحداث، وتحليل الأوضاع، وتشخيص الأدواء، تجعل الإنسان يقف على أخطاء يصوبها، وعلى معالم يحتذيها، وتورث في الإنسان حضورا في زمنه، وتجعله ابنا لوقته، كما تحمل في طياتها تجارب وخبرات وعصارة أفكار كاتبيها. وإن لم تكن الصحف في هذا الجانب سواء، ولكن على المرء أن ينتقي ويختار، ويستفيد ويتفاعل مع الحركة التي تنشئها الصحف وترعاها.

وإذا كانت الصحفية قديرة، مثل "ميزاب، النور، النبراس، المغرب، الفرقان، وادي ميزاب، الأمة..."، وإذا كان صاحب الامتياز عالما جليلا، وإمام مبرزا، ومجاهدا فاضلا مثل الشيخ أبي اليقظان رحمه الله تعالى فشد عليها بالنواجد.

ولئن عرفنا الشيخ عدون سعيد رحمه الله تعالى أبا للحركة الإصلاحية بعد الشيخ بيوض إبراهيم رحمه الله تعالى، قائدا ومجاهدا، وموجها وراعيا، مع إخلاص يتقدم أعماله، ووقار يزين هيبته، وعلامات الجهاد بادية على قسمات وجهه، ونبرات قوله ومديد عمره. لئن عرفنا الشيخ عدون في هذا المجال، فهل عرفنا الشيخ كاتبا مقتدرا وصحفيا نشيطا، وموَقِّعا ممتازا، وقَّع على الأحداث بتقريرها، وعلى أدواء الأمة بتشخيصها، وعلى مسار الحركة الإصلاحية بترسيخها في العقول، وتقويمها في السلوك، وتربية النفوس على مبادئها ومقاصدها.

وهذا ما دفع إلى الوقوف على جهاده في هذا المجال المهم، نستنطق أفكاره، ونتتبع نفَسه، ونتلمس تحاليله ونرصد وقع سهامه.

وما أثار الانتباه فعلا في مقالاته التي كان يوقعها في جرائد أبي اليقظان تركيزه الكبير على صناعة الرجال، وتقويم الأخلاق، وبث العزة والهمة العلية.

فحاولنا تتبع ما أمكن من مقالاته وتجميع تلك اللفتات والنفثات عن صناعة الرجال، وإحياء الإنسان، مع النظر في طريقته المستعملة في إقناع قارئيه وإثارة نفوسهم وبعثها إلى العمل والجد والبذل.

وقد كتب الشيخ عدون رحمه الله تعالى هذه المقالات، وهو في عمر الشباب وبداية الكهولة، وقصد بها صناعة الرجال، وبعث قومهم، وإن لم يقصد بها أساسا الشباب، ولكن المتمعن في أفكاره التي يتناولها والخطاب الذي يريد إبلاغه يحس بقوة توجيه الشيخ لتلك السهام إلى الشباب قاصدا بعثه وتقويمه ودفعه إلى العمل والإصلاح تحملا للمسؤولية، وقياما بالواجب. كيف لا ومعهد الحياة كان يسمى معهد الشباب حينها، والشيخ هو معلم الشباب وصانعهم، وهو منشئ جمعية الشباب والمرابط مع جريدة الشباب!

بل إن الذي عايش الشيخ رحمه الله تعالى رحمة واسعة يشعر بروح الشباب وتحفزه، مع الجدية والحزم، ومع كثير من الصفاء والإخلاص، فلا يتوقف الشباب عند عمر محدد، بل هو روح تسري وعمل يبدع، وقوة حثنا القرآن على إعدادها وتقويمها واغتنام وجودها.

ففي هذا السياق نقرأ مقالات الشيخ، استجلاء للمعاني، واستبصارا بالمقاصد، ووقوفا عند الحس الداخلي للشيخ والدوافع التي أدت إلى التركيز على هذه الجوانب، وأبرز الاهتمامات التي وجهت كتابته، والروح التي أراد أن يبثها في الشباب وما أراده أن يكون.

سنحاول الوقوف إذاً على المنهج الذي يرسمه لنا الشيخ للقيام بالإنسان، وبعث الحياة فيه، وتربيته وتقويمه وتوجيهه، كما نحاول أن نذكر بعض الجوانب التي ركز عليها في طريقة خطابه. والله الموفق.

منهج صناعة الرجال: منطلق، شروط، معيقات

أسلوب الشيخ: المقارنات، الواقعية، الربط بالتاريخ، تحميل المسؤولية.

منهج صناعة الرجال:

يمكن تناول ذلك في خطوات أربع، هي إحياء الوعي، وتنمية العقل والعلم، والعمل الميداني والتقويم.

فمن المنطلقات الوعي والهمة والإخلاص، فأول شيء ينبغي على الإنسان أن يحققه هو أن يكون واعيا يقظا لحياته، شاعرا بقيمتها، فـ"كيف ينتفع [الإنسان] بحياته وهو لا يعرف لها قيمة ولا يقيم لها وزنا ولا يرى لها معنى ولا يعلم منها إلا أنه وجد كما اتفق فعاش كما اتفق لا يهتم لانحطاط أو علو، ولا لمدح أو ذم، ولا لسعادة أو شقاء، فاستراح حيث تعب الكرام"[1].

هذا ما يخرج الإنسان من دائرة العبث والهمل، هو الشعور الذي "يورد صاحبه حتفه وهو راض مسرور آمن مطمئن"[2]. بل إنه ليجعل منه شخصا آخر غير الذي نعرفه، إنه "[شعور] يغامر بصاحبه مغامرة قد تؤدي بحياته، ويحمله على الشجاعة وهو جبان، وعلى الإقدام وهو محجام، وعلى البذل وهو بخير"[3] .

ولابد للمرء من قصد وغاية، ولابد لحياته من مطمح أسمى يوجهه، فالشيخ رحمه الله يحاول أن يقنع الإنسان بذلك من خلال المقارنة بين أبسط الأمور الجزئية في الحياة وكيف نحبِّر لها، مثل أن يبني أحدنا دارا فلا بد أن تكون"بداية الصورة الخارجية التي يشرع عمله في تأسيسها هي نهاية الصورة الكاملة المرتسمة في الذهن أو في الخريطة...وكل من انطلق بلا تخطيط [فهو] أبله وسفيه ومجنون.

إذا كان هذا حكمنا على من عمل في ماله بغير ما تقتضيه الحكمة ويوجبه نظام العمران، فكيف يكون حكمنا على من عبث بأعز شيء يملكه، بل بعلة وجوده وهي حياته العزيزة! يعيش كما اتفق ويحيى رهن الصدف والحوادث، ليست له خطة مرسومة يسير عليها ولا غاية معلومة ينتهي إليها، يعمد لسوء تصرفه وعدم تبصره إلى حياته التي لم تمنح له إلا ليتمطى بها ذرى المجد وينال بها أعلى منازل الكرامة، فيشتتها ويبددها، فيذهب هباء منثورا لا يظفر منها إلا بما يظفر القابض على الريح".

" فإذا كان الإنسان يعتني بجزئيات أعماله ولا يريد منها إلا أن تكون في أعلى مثال من الجودة والإتقان والكمال، ولا يقدم على شيء منها إلا إذا قتله بحثا وتمحيصا، وعرف كيف تكون صورته وهيئته وغايته فكيف لا يكون هذا شأنه في أمر حياته التي هي مصدر كل عمل يأتيه وكيف لا يريد منها أن تكون حسب مثل أعلى يجعله نصيب عينيه فيحتذيه أم كيف لا يوجهها نحو مطمح أسمى فيعمل كادحا للوصول إليه وهل يجذر به أن يهملها ويتغافل عنها ويتركها بين أيدي الصدف تفعل بها ما تشاء وهو يعلم أن كل مهمل ضائع؟"

فلابد من غاية للإنسان وخطة، يقول رحمه الله:"لا يدرك الإنسان مأربه من الحياة ولا ينال منها مبتغاه إلا إذا كانت له غاية يطمح إليها وصورة مشخصة من الحياة الكاملة يبني عليها هيكل حياته وهذه الغاية أو هذه الصورة القائمة في النفس هي (المثل الأعلى) فكل من لم تكن له خطة مرسومة تنتهي بمثل أعلى يطمح إليه ويعمل جهد استطاعته للحصول عليه كان متعسفا في سيرته وكانت حياته مضطربة فتتلاشى وتذهب ضحية الإهمال والفوضى".

فـ"ما بقاء هذا الإنسان في هذه الحياة إذا لم تكن له أعمال باهرة تبرز للملإ شخصيته وتترك له في الدنيا كأنما تداول سمع الإنسان أنمله العشر".

---

[1] الشعور بالخطر باعث على درئه، النور، 7، أكتوبر 1931م.

[2] الحياة السافلة وكيف التوقي منها، النور، 6، أكتوبر 1931.

[3] الحياة السافلة.

"إذا لم يكن له طريق معبد يرتسمه ويحتذيه ولم تكن له غاية نصب عينيه تضبط سيره وتسدد خطاه اشتبهت عليه المسالك وانطمست أمامه المعالم فتأخذه أمواج الحوادث المتضاربة تطفو به حادثة وترسب به أخرى وتصادمه زوابع النكبات تدفعه عاصفة وتجذبه أخرى، فلا يزال طول حياته بين ارتفاع وانحطاط وإقبال وإدبار وجزر ومد شبابه يفر وعمره يطوى ومصباح حياته يضؤل ويضعف إلى أن تطفئه نكباء...أما إذا رسم لحياته خطة ونصب أمامه مثلا أعلى واختط طريقه انزاحت عنه العوارض وانجلت أمامه غياهب الحوادث وانقشعت من طريقه سحب الأهوال فاخترق بإرادته عواصف النكبات ومضى قدما نحو غايته لا يلوي على شيء وكلما قاربها بدت له غاية أشرف منها بعيدة المدى فيرغب فيها ويواصل سيره ويضاعف نشاطه فلا يزال نشاطه يتضاعف ورغبته تشتد كلما تجددت غايته إلى أن يقطع بحر حياته وقد نال ما قدر لنفسه من عظمة وكمال.

إن المثل الأعلى أعظم باعث وأكبر حامل على اقتحام المصاعب ومنازلة الأهوال ومقارعة الخطوب فكلما تطرق إلى العامل فتور أو ميل إلى الراحة أزعجه ونفخ فيه روح الجد والمثابرة وقاده بزمام الرغبة والطموح إلى أن يلتحق بالأفق الأعلى"[1].

وفي هذا الجانب بالضبط يظهر من يتلمس مثلا أعلى ممن يعيش هملا بلا هدف ولا سبيل، ويعود الشيخ إلى المقارنة فيقول:"إذا ادلهت الخطوب، واحلولكت أرجاؤها، وثارت عواصف الحوادث... فقف أنت عن كثب متأملا مواقف الناس أمام هذه الزعازع، فإذا رأيت هلعا أصاب النفوس، وفزعا أثار الحواس، وطيشا أفقد العقول رشدها، وتهورا سلب الجوارح توازنها، ... ورأيت سواقط هذه الزوابع وضحاياها تعم البقاع، وملأ قوائم الإحصاء، فاعلم أن هؤلاء الناس همج رعاع وزعانف من سقط المتاع، وأنهم لا يستحقون نشقة من نسيم الحرية، ولا رشقة من ماء الحياة، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.

وإذا رأيت ثباتا في النفوس، وأصالة في الآراء وحكمة في العقول، واتزانا في الجوارح وسدادا في الخطى وسلوكا في الجادة، واتئادا في السير، وتراصا في الصفوف، فاعلم أنهم إلى النضوج العقلي أقرب، وإلى الكمال الإنساني أميل، وأنهم طلاب حق ورواد السلام"[2].

ولكن! ليست كل المقاصد هي المقصد الأساسي في الحياة، فثمة مقاصد جانبية كطلب العلم، أو كسب المال، أو صنع الجاه، إن كانت المطمح الأسمى للإنسان، فإنا ستورث –كما يذكر الشيخ–

فإذا كان القصد طلب العلم، كان"الحصول على مهنة يحترفها أو وظيف يمتص من وشله أو جاه يسترضي به الأقوياء أو سلطة يتحكم بها على الضعفاء..."، وإذا كان القصد طلب المال،كان"الفرار من شبح الفقر الذي يتخيله متحفزا للانقضاض عليه، أو جمعه أو تكديسه فيلتذ بمجرد كنزه وادخاره أو تشييد الدور والقصور واقتناء الأراضي والضياع به فيمتع النفس بمنظرها وبهجتها أو تمكين النفس مما تصبو إليه من الملاذ والشهوات..."

و"أمثلهم طريقة وأحسنهم مقصدا: طلب العلم أو كسب المال لخدمة الأمة والوطن والإنفاق في المشاريع العامة والنائبات الوطنية، لكن غرضه الشهرة وحسن الأحدوثة ورضى الناس لا وجه الله ولا ابتغاء رضوان الله. وكم من مشروع وطني مات في مهده ضحية الألقاب الجوفاء، وكم من مصلحة عامة ديست وقضى عليها حب الرياسة المبيد، وكم من حزازات وشحناء بذرها في قلوب الأصفياء التكالب على المقاعد والتنافس على الوظائف، وعجزت فؤوس الإصلاح ومعاول النكبات العامة عن اقتلاع جذورها واستئصالها وكم وكم".

فإذا تحقق غرضه أورثه "سقوط الهمة ووهن العزيمة وضيق سبل الحياة...فالحرمان من التمتع بسعادة النفس وراحة الضمير، والحياة إنما تتسع وتهنأ بالنظر إلى ذلك المطمح الأسمى، فإذا قضت النكبات وحوادث الأيام التي تعترض مجرى الحياة على آمال الغير الطامح إلى

---

[1] المثل الأعلى وكيف يجب اتخاذه علما في مفازة الحياة، النور، 24، مارس 1932م.

[2] معيار النضج الفكري في الأمم، الأمة، 86، أوت 1936م.

المطمح الأسمى وقطعت السبل عليه دون مراده وبلوغ أمنيته طارت نفسه شعاعا واحترق قلبه هما وكمدا والتياعا ومات وهو في عداد الأحياء"[1].

فليس كل المقاصد تصلح مطمحا أسمى للإنسان، بل المطمح الأسمى كما يذكر الشيخ هو الإخلاص لله تعالى ونيل رضوانه، لا يكون تسخير الدنيا إلا لذلك، وتكون تلك الأغراض مقاصد جزئية لخدمة هذا الغرض الأسمى، وهذا ما يورث علو الهمة[2].

ويرتبط بذلك الاشتغال بهموم الأمة وحياة المجتمع أكثر من الشؤون الخاصة، فلا يكون اكتساب المال أو العلم أو الجاه إلا لأجل الأمة، وردا للجميل، فتكون أيها الإنسان:"عبدا لأمتك تحيى وتموت لأجلها"[3].

وهنا تظهر الهمة العلية من النكوص والتسفل، فالإنسان ذي الهمة المنحطة مع "تكريم الله له بالعقل، وتشريفه بالإدراك والتمييز، وتفضيله على كثير من الخلق- أبى الكرامة وعافها، ورضي بالحياة الدنيا بدل العليا، فسقطت همته فأهان نفسه وانحط إلى أسفل سافلين، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه"[4].

وقد تتبع الشيخ هذا الجانب وأولى له الأهمية الكبيرة لما له من أثر سلبي في الإنسان، فذكر عيوب ينبغي تجاوزها، منها ضعف الشخصية واستصغار النفس، وما لذلك من الآثار الوخيمة:

فـ"الحكم على النفس بذلك حكم على النفس بالعجز وعدم القدرة، فيصبح عاجزا وهو القادر جاهلا وهو العالم، ... مواهب وقدرات لا يشعر بها، وباحتقار نفسه لا ينتبه لاستخدامها واستثمارها، فيضحي محروما منها يموت ظمآنا وهو حامل للماء"، إنهم:"يتذمرون من الوضع ويرغبون في الإصلاح لكنه آيسون من كفاءة أنفسهم واستطاعتها، فلا يتحول الاهتمام إلى سعي".

"نشأ التواكل من ذلك والاعتماد على الغير وعدم الاكتراث بالواجبات، فتعطلت الأعمال وضاعت مصالح وفاتت فرص وماتت مشاريع، فالعالم حصر المعلومات في دماغه لا تتجاوز إلى لسانه أو أعماله، والجاهل لا تحدثه نفسه بالتعلم والاستفادة بما منح من مواهب وخصائص لو استخدمها لاستفاد وأفاد". ويستطرد الشيخ ليربط ذلك بعوامل الفشل في الأمة:

"لا يقف عند احتقار نفسه، بل يتجاوزها إلى احتقار غيره، فلا يعتدون بهم ولا يثقون بشيء من مساعيهم، قياسا على أنفسهم، فلا يعينونهم ولا يعاضدونهم لأنهم لا يرون فيهم كفاءة، أكثر من هذا يمدونهم بالأضرار والتخريب لأن مساعيهم لا تروقهم ولا تتفق وأغراضهم السافلة، لا يستطيعون أن يفهموا أن إنسانا من جنسهم وبني جلدتهم يستطيع أن يقوم بمشروع أو يعمل عملا ذا شأن وأهمية وهم عاجزون عنه"[5].

ويخاطب الشيخ الجزائريين فيقول: "لم نؤت نحن الجزائريون من ضعف مثلما أتينا من ناحية إنكار ذاتيتنا واستصغار نفوسنا وعدم الاعتداد بكرامتنا ومشخصاتنا. إن الأمراض الفاشية بيننا والتي أنهكت قوانا وأوهنت عزائمنا وكادت تقضي على أهم مواهبنا بما أورثتنا من الضعف والانحلال والفشل العام نتيجة طبيعية لهذه الآفة المبيدة فكنا باستشعارنا الضعف والمذلة والمهانة مستضعفين ذليلين ممتهنين وكنا الجناة على أنفسنا"[6].

---

[1] المطمح الأسمى ونتيجة إعراض الناس عنه، النور، 9، نوفمبر 1931م.

[2] المطمح الأسمى ونتيجة إقبال الناس عليه، النور، 10، نوفمبر 1931م. وقد تركنا التوسع في هذا الجانب على أهميته، لوجود محاضرة أخرى لأخينا الأستاذ صالح محمد حمدي عن الإصلاح الديني عند الشيخ رحمه الله.

[3] الحياة السافلة وكيف التوقي منها، النور، 6، أكتوبر 1931.

[4] المثل الأعلى وكيف يجب اتخاذه علما في مفازة الحياة، النور، 24، مارس 1932م.

[5] احتقار النفس، المغرب، 29، ديسمبر 1930م.

[6] هذه خصائصنا فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها ، النور، 18، جانفي 1932.

ومن الأمراض التي عالجها الشيخ مما يضعف الهمة ويثني العزم "التشاؤم".

يقول رحمه الله تعالى إنه:"توقع الشر والفساد من حيث يرجى الخير والصلاح"، وأنه"يصيب نفسا ضعف فيها الإيمان، وتمكن منها أدواء الجبن والحسد والبخل". ويصف الشيخ حالة المتشائم أنها:"العيش في ظلام، عبوس الوجه، ناضب معين البشر، ومنظار أسود إلى الدنيا، وتأفف وشكوى، وتضجر وتذمر، وكآبة، من يذكر له جوانب إيجابية يرميه بالجهل والقصور والطيش والخفة، لتفاؤله بالخير وارتياحه لأعمال البر والصلاح، وذلك سرعة تأثر واغترار بالظواهر.

يطلب منه العون والمشاركة في مشروع إصلاحي، فيذهب يذكر أخطارا تكتنفه وآفات تحيط به، ويسرد تاريخ حركة الإصلاح ومشاريعه مقتصرا منها على ما لقيت من خيبة وفشل، متناسيا ما تكللت به من نجاح ونصر وفوز، ليظهر تفوقه في الاستنتاج وحسن تدبره في العواقب وليبرهن على صحة تشاؤمه، ولينتحل لنفسه أعذارا تبرر إيثاره الانعزال والفرار من المشاركة والمساعدة. لا يكتفي بذلك بل يشن حربا بتثبيط العزائم وبيان المخاطر والصعوبات".

ولا يقف الشيخ دون توجيه النصح بتقوية الإيمان، فـ"لن يصيبا إلا ما كتب الله لنا، والنظر إلى عمله من جهة نتيجته الخيرية وعاقبته الحسنة، وينظر إلى ما قد ينتج من سوءٍ نظرَ حذرٍ وانتباه لاتخاذ الحيطة والأخذ بالحزم"[1].

ومما يضعف الهمة العلية ويحول دون بلوغ المقصود الانهماك في الماديات، وهذا ما تناوله الشيخ بالدراسة، يقول رحمه الله:" إن من ينهمك في الماديات حتى يكون لها المقام الأسمى في نظره ويجعلها في المنزلة الأولى من نفسه ولا يرى للحياة الروحية قيمة ولا يقيم لها وزنا لهو إنسان عديم الشعور سفيه النفس بعيد عن كل كمال إنساني، ساع في حتفه وهو لا يشعر هو أقرب إلى الحيوان الأعجم منه إلى الناطق.

فمن الحمق والسفه أن يحصر الإنسان همه واهتمامه في حياته المادية ويعتني بها الاعتناء الشديد ويسعى جهده لتوفير خيراتها وإحاطتها بكل وسائل الإراحة، وهو يعلم أنها حياة سريعة الفناء وشيكة الزوال محدودة الأيام ...لا تلبث إلا عشية أو ضحاها بينما هو يهمل حياته"[2].

خلاصة: لا لحياة الهمل، بل شعور، ومقصد، ولا بد من ترتيب المقاصد، ووجود مطمح أسمى بينها، ثم ثبات، وترفع وهمة، وتجنب للأمراض التي تثبط الهمة كضعف الشخصية والتشاؤم، والانهماك في الماديات.

ولعل أهم ما يشعر به الإنسان ويحاول الخروج منه أزمة الجهل، وذلك بالعلم والمعرفة والتفكر والاعتبار.

يقول عن أزمة الجهل:"هي أدهى من الموت، وأمر حياة، كلها تعاسة وشقاء ونكد، لا ينتقل الإنسان من بلاء حتى تحيط عليه بلايا، ولا ينجو من مرض حتى تنزل به أمراض، فكان ما كان من ضعف في النفوس وحط في الرجال... متغلغلة في نفوس الدهماء قد اتخذت فيها أوكارا للخرافات والاعتقادات الفاسدة، فنتج من جراء ذلك زيغ في العقائد وتنكب عن الهدى وانحراف عن الدين القويم".

ويعدد الآثار: شرك بالله، اختلاف الأهواء وتباين الوجهات، التدابر والتقاطع، والتنازع والشقاق، الفشل العام والشقاء المستمر، إهمال تربية النفوس فنشأت على ما جبلت عليه، فكان الخبث في الطبائع واللؤم في الغرائز.

في المتاجر الفوضى بدل النظام، والإهمال مقام الضبط والإتقان، فكانت أشبه بعبث السفيه بالمال الموروث، فإفلاس وخسارة، و"في المزارع، جفت التربة بجفاف أدمغتهم، وجاحت الثمار بجياحة عقولهم".

ويعقد لنا الشيخ مقارنة بين أزمة الفقر التي أحس بها الناس ليحرك شعورهم نحو أزمة أشد منها هي أزمة الجهل، فأزمة الفقر تحمل:" نفوسنا من الهلع والجزع على خلو أيدينا من الكماليات التي ألفناها حتى ألحقتها أوهامنا بحكم الضروريات نظرا لأكثر الناس أو الضروريات

[1] التشاؤم، المغرب، 36، فيفري 1931م.

[2] الإفلاس الديني حسر إلى هوة الإفلاس المادي، النور، 27، مارس 1932م.

الحقيقية نظرا للأقلية ...مهما اشتدت فإنها لا تعدو الموت الذي يلحق بعض أفراد حلت آجالهم وانقطعت أرزقاهم، فكيف لا يكون لنا من هذا الشعور نصيب يحملنا على الجزع من أزمة الجهل والخوف من مغبتها الوخيمة، فكيف تلقينا هذه بكل برودة وقابلناها بكل هدوء واطمئنان وتغاضينا عما تجره إلينا من الويلات والنكبات وما تسومنا به من سوء العذاب والموت الزؤام وتلقينا تلك بهذا الاستياء العام والجزع الشديد والسخط الشامل...

كيف تنبهنا هذا التنبه لأزمة إن اشتدت لا تصيب إلا أفرادا معدومين على أن هؤلاء المصابين بها قد ألفوها واستمرءوا طعمها فلم يعد وقعها عليهم شديدا وأثرها أليما... ونغفل عن أزمة الجهل التي ليس من شأنها إبادة الأفراد المعدودة وإنما شأنها إبادة الأمم ومسخ الشعوب، فتصبح مسخرة تسخير العجماوات تسام سوء العذاب ويأتيها الموت من كل مكان وما هي بميتة. ولكن هي أزمة الجهل:

تصم السميع وتعمي البصير ويسأل من مثلها العافية "[1].

وهذا ما يجرنا إلى الجانب الثاني عند الشيخ عدون –رحمه الله– في صناعة الرجال، وهو العلم والمعرفة.

المعرفة وإعمال العقول:

أول ما نلمح في هذا الجانب قيمة العقل وخطر إهماله، يقول الشيخ:"إن أعظم نكبة تنكب به أمة أن تصاب في عقولها فتتوقف عن أداء وظيفتها من التمييز بين النافع والضار والحق والباطل، فترى حسنا ما ليس بالحسن، وتستسمن ذا ورم وتستورم ذا سمن، ما أعظم بلاء هذه الأمة وما أشد محنتها، وما أشق مهمة يضطلع بها مرشدوها، ومصلحوها إن ذلك لمن عزم الأمور"[2].

ويحث الشيخ على إعمال العقل ففيه الخير كله، يقول:"أيها الإنسان العاقل، إن الله لم يمنحك هذا العقل الذي هو مناط التكليف، ولم يميزك عن الحيوان الأعجم إلا ليقيم عليك الحجة به فيما حملك من أمانة التكليف، بعد أن هداك النجدين، وبين لك الرشد من الغي، فلا تكفرن بهذه النعمة العظمى نعمة العقل بإهمال النظر بها، واستعمالها فيما خلقت له، ففي استطاعتك إذا أنت أحسنت استعمالها وأنعمت النظر فيما يعرض عليك أن تصدر حكمك صحيحا عليه بأنه حق أو باطل، نافع أو ضار، صالح أو فاسد، ثم تأخذ إن رزقت التوفيق والإنصاف بما يتراءى لك من حق أو نفع أو صلاح فلا تلبسن هذا النور نور العقل بدنيء الأغراض وخسيس الشهوات وظلام الأهواء، ولا يصدنك عن اتباع الحق والصلاح مغرض دجال، أو انتفاعي محتال، أو مفتن ضلال"[3].

بل إن لإعمال العقول الأثر البليغ على الأمة، يقول رحمه الله:"هل كان يستقيم للنفوس اعوجاج أو تسمو للإنسانية مكانة أو يمتد للحضارة رواق أو يزخر للعمران بحر لولا هذه العقول السابحة في ملكوت الله الطائرة في آفاقها؟ أفلا يكون نصيب الأمة من هذه الخيرات وحظها من النعم النكد والحرمان إذا كانت أفكار أبنائها معطلة وعقول علمائها مقيدة ؟ أم لا تكون حياتها الشقاء المتتابع والموت المعنوي إذا فقدوا النظر والاعتبار وجمدوا على حياة تعاقبت عليها الأجيال والقرون وغبر عليها الزمان وتقدمها بأشواط لا تعد وأبعاد لا تحد"[4].

ويركز الشيخ –رحمه الله– على ضرورة المعرفة بخصائصنا ومواهبنا، فيقول:"جهل للخصائص وعدم الاكتراث بها أعدمنا أعظم محرك وأكبر باعث على اكتساب المجد ونيل المعالي وحرمنا التمتع بنعمة الحياة الشريفة ومن الاتصال بحقوقنا الطبيعية".

---

[1] الأزمتان الجهل والفقر، النور، 20، فيفري 1932م.

[2] "من هم حماة الدين ومن هم الخاذلوه ؟"، الأمة، 39، أوت 1935م.

[3] من هم حماة الدين.

[4] جمود العلماء وأثره في نفوس العامة، الأمة، 71، أفريل 1936م.

ويعدد تلك الخصائص فيبدأ بالدين، فـ"الدين هذب نفوس من اعتنقه ونفخ فيها روح العظمة، فأصبحوا أعزاء كراما، يأنفون من الخضوع لأي قوة في الأرض مهما تعالت وتجبرت، رعاة الأنام وهداة البشر بناة الحضارة الماجدة والمدنية السامية... بعد أن كانوا بداة رعاة لا يدركون للحضارة مغزى ولا يفهمون للمدنية معنى، يؤلهون الجمادات وأغلب مصادر معيشتهم النهب والسلب، وأكبر همهم التحارب وإهراق الدماء...

قومية ملأت التاريخ مجدا وعظمة...تاريخ ذهبي خلد الأسلاف الأماجد وأبرز العظمة والنبوغ... وطن غني طيب التربة مركزه أسمى وشهرته فائقة في العالم الاقتصادي... لغة غنية راقية يتسع صدرها الرحب لكل معنى مستحدث كما وسع كل قديم، كفاها شرفا أنها لغة الكتاب العزيز... نفوس ومواهب فطرية ومزايا موروثة واستعداد كامل لتحقيق كل غرض جليل ابتغيناه وكل غاية شريفة التمسناها"[1].

ولا يفتأ الشيخ ينبه إلى أخطار تهدد إعمال العقل، من أبرزها الأوهام المستعبدة، والتي يقول عنها:" هذه الآفة القاضية على أعظم ما يتميز به الإنسان عن غيره".

وكعادته في مقالاته يقارن ويبين فضاعة تلك العبودية، فيقول رحمه الله:"يرجى للعبد المملوك الذي لا يملك أخذ ولا ردا ولا عطاء ولا منعا ولا قوة ولا إرادة أن يعتق يوما ما...ويرجى لأمة استعبدتها دولة وتصرفت فيها تصرف السيد في عبده أن تفك عن نفسها قيود الأسر وأغلال العبودية...لكن من الصعب بمكان إن لم نقل من المستحيل أن يتحرر فكر الإنسان من عبودية الأوهام والخرافات إذا تمكنتن منه وتأصلت فيه.

العبد يستشعر مرارة الذل ويستبشع طعم العبودية ويستثقل الغل...فيحاول بكل وسيلة التفصي من عذاب الهوان والتخلص من ثقل الأغلال...والأمة تسام الخسف فتحس بضغط الظلم والإرهاق وتستثقل وطأة الاستبداد فتقوم عليه طالبة حقها من الحرية...أما من استعبد في فكره فلا دواء لعلته ولا حيلة تخلصه من مصيبته، لأن هذه العبودية غامضة الأثر عند من أصيب بها لا يحس بنزولها ولا يشعر بوجودها".

ويشير الشيخ إلى أحد المؤثرات في إنتاج هذه العبودية، دون إزاحة المسؤولية عن صاحبها، فيقول:"وحسب الوسط الذي نشأ فيه [بين حالين] وسط متشبع بحرية التفكير...[تدفع إلى التحرر منها فيكون قد] نجا منها [أو] وسط مسدود بصمام الجمود والاستكانة والرضى بالذل والامتهان والتقليد الأعمى والتسليم المطلق تمكنت الآفة من ضرب عروقها في فكره وتأصلت فيه وضربت عليه قبة من الأوهام فسدّت وجهات النظر وأغلقت عليه أبواب التفكير، فلا يكاد يخلص إليه بصيص من نور التبصر أو نسيم من حرية التفكير، فتستمر هذه العبودية به ويألفها ويستأنس بها ولا يرضى بها بديلا لأنه لا يعلم أن هنالك موهبة من أجل ما وهبه الله للإنسان يقال لها حرية التفكير، ولم يتذوق لذتها ولم يسبح في فضائها الفسيح ولم يتقلب في بحبوحتها اللذيذة فهو راض بحالته لهذه العبودية مقتنع بحصته مرتاح لمصيبته فكيف يحس من كانت هذه حالته لهذه للعبودية ألما أو يشعر بمرارتها فضلا عن أن يسعى في التخلص منها والانفلات من سجنها، أليس هذا الداء من أعضل الأدواء وأجمها أثرا وأسوئها مغبة ؟ فمن المستحيل إذا كما قلنا أن يتاح لهذا المملوك التخلص من ربقة العبودية"[2].

ويحث الشيخ على حرية العقل من الأهواء والنفس الأمارة بالسوء، وأنها المعراج إلى حرية الإنسان في مناحي حياته الأخرى، ويلقي باللوم على من طلب الحرية وأغفل تحرير العقل، يقول:" يلتمسون الحرية في التفكير، في القول، في التعليم، في الحكم، وفي كل شيء، وغفلوا عن حرية هي منبع كل حرية ومفتاح كل قيد، وهي متناول أيديهم لا يصدهم عنها صاد ولا يعارضهم فيها معارض ألا وهي حرية العقل

[1] هذه خصائصنا فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها ، النور، 18، جانفي 1932.

[2] الأفكار المستعبدة بالأوهام والخرافات، النور، 14، ديسمبر 1931م.

العقل نعمة وفضل يرشد إلى سبل الخير ويتنكب به مواطن الهلاك... به صار الإنسان حرا، يأبى هو إلا أن يقيده بنفسه ويجعله تحت إرادة نفسه الأمارة بالسوء وسلطتها فتقيده بسلاسل الشهوات البهيمية فيصبح عبدا لها تسخره كما شاءت وشاء لها خبثها ودناءتها فلا يسكن إلا بإذنها ولا يتحرك إلا بإشارتها.

عبودية تجب محاربتها قبل كل شيء، لأنها مبعث كل شر ومنبع كل رذيلة. وماذا تجدي الحرية التي يتشدقون بها شيئا إذا كان الإنسان عبدا لنفسه وخاضعا لها ، بل تكون عليه وبالا وشرا مستطيرا. ليست هذه الحرية التي نرى لها هذا الأثر الفاسد في المجتمع إلا عبودية لو يفقهون، لأن الإنسان الذي يجترح السيئات باسم الحرية له من عقله وازع يزعه عن الاقتراب إليها فيتصامم عنه وينزل على حكم نفسه التي استعبدته فيدعى أنه حر في أفعاله وأقواله وهو فيها مسخر لنفسه لا إرادة له فيها ولا حكم... لو كان هؤلاء الذين يتغنون باسم الحرية ...منفلتين من قيود نفوسهم لم تستعبدهم أهواؤهم وأغراضهم السافلة لكانوا متسمين بكل فضيلة ونزيهين عن كل نقيصة ولكانوا في مصاف الملائكة، لأن العقل الحر لا يعرف غير الفضائل ولا تصدر عنه إلا الرحمة والعدل وحب الخير لجميع الناس كما يحبه لنفسه والإيثار والنزاهة والصدق"

وينادي بصوت عال:"حرروا عقولكم أيها القوم من قيود النفس إن توخيتم الحرية الصحيحة وتخلصوا من عبوديتها إن رمتم النجاة من غوائلها... إذا تحرر عقل الإنسان من قيود النفس انفتحت له أبواب الحرية في كل شيء... فيقوم بواجبات دينه بنشاط، وبواجبات وطنه وهو قرير العين: بذلا للمال، أو إرشادا ونصحا وتعليما، أو اجتهادا في التعلم، أو إتقان مهنته وحرفته"[1].

ومما يحذر منه الشيخ أيضا التدخل في شؤون العلم والتطفل من غير أهله، وضرورة احترام العلم والتخصص، يقول:

"إذا كان الفلاح الذي لم يأنس طول عمره بغير دوابه، ولم يعرف في حياته طريقا غير طريق ينتهي إلى حقله، والتاجر الذي لم تألف يده غير المقص والذراع وغير الميزان والصاع، ولم يجر لسانه بغير ألفاظ الثمن والمثمن والبيع والشراء والصانع الذي لا يقع نظره طول يومه إلا على القدوم والمنشار أو على المطرقة والنار، أو ما إلى ذلك من الآلات، والطالب الذي يحفظ بعض سور القرآن أو يستظهره كله ولكن لا يتجاوز ترقوته ولا يفهم لما يقرأ معنى أو الذي أطل على بصبص من نور العلم من نافذة الكتب والمجلات والجرائد والنشريات من غير أن تسبقه ثقافة دراسية.

إذا كان هؤلاء الجهلة الأدعياء يزاحمون العلماء في مقامهم الذي قاسوا في رفعه هموما وأهوالا ويتطفلون على موائدهم الفاخرة التي عجنوها بعصارة عقولهم وأنضجوها بحرارة مهجهم ويتحكمون فيها بحسب الجهل ويتصرفون بمقتضى الأهواء والأغراض...فلتقهر المدارس ولتنهر المشاريع العلمية وليمت العلم وليعش الجهل... لماذا العناء في طلب العلم والتفاني في خدمته والتضحية بالنفس والنفيس في سبيله إذا كان الجاهل الذي لا يعرف أن هناك علما يسمى فقها وآخر يسمى نحوا مثلا، يرتفع له في مسائل العلم صوت إزاء صوت العالم الذي قتل علمه بحثا وتحقيقا وكانت الغاية التي يسعى للوصول إليها طول حياته يحصل عليها الجاهل من غير كد ولا عناء في طرفة عين؟ ...أي دليل يقوم وحجة تنهض إذا تحكم الجهل وتسلطت الغباوة وضلت العقول على علم ؟...فليجعل العقلاء لهذه المخزيات حدا وليقف الرأي العام موقفا حازما إزاء هذه الفضائح موقفا يعرف هؤلاء الطفيليين أقدارهم وينزلهم منازلهم ويقصيهم عن منازل لم يمهروها السهر والجد وهم فتيان"[2].

---

[1] حرية العقل، المغرب 14، سبتمبر 1930م.

[2] المتطفلون على موائد العلماء، الأمة، 102، ديسمبر 1936م.

ويقف الشيخ متفحصا ظاهرة من الظواهر أعاقت مسار المعرفة وصلاح الإنسان، ألا وهي التسرع في الأحكام، فينكر بشدة على الذين:"يحكمون قبل أن يتبينوا ويقولون قبل أن يتفكروا يغنيهم الوهم عن العلم والظن عن التحقيق والشبهة عن الحجة، فلا تكون أحكامهم إلا خاطئة ولا أقوالهم إلا باطلة ولا آراؤهم إلا خطلة".

ويبين مغبة هذا التسرع في حياة الأفراد والجماعات، فيقول:"أكثر ما يقع بين الأفراد المتآخين والجماعات المتصافية من الشنآن والبغضاء بعد التوادد والتصافي والشقاق والنزاع بين الاتحاد والوئام متسبب عن هذه الآفة المهلكة والشرارة المبيدة".

"مصدرها أحد رجلين: رجل قصير النظر وفي طبعه خفة وطيش تحمله خفته عند حدوث أمر على المبادرة إلى بث الحكم فيه،... أو يقلد فيه مثله تقليد الأعمى للأعمى بدون فكر ولا نظر...يحسب أنه على هدى وصواب وأنه لم يصدر في حكمه إلا عن بينة وتحقيق... تلفيق عن جهل وقصور وتقليد وحماقة".

وسبب هذه الأخبار:"رجل خبيث النفس لئيم الطبع له أغراض سيئة يريد تحقيقها، ومقاصد عدوانية يسعى لبلوغها فيتخذ من الحوادث الملائمة له سلما للوصول إلى أغراضه فينسج لها أحكاما يلفقها من بعض الوقائع سداها الكذب والبهتان ولحكمها الأوهام والتخرصات... يذيعها فيتلقفها من مثله فيزيدها نفخا وكيرا، ويتلقاها عنهم البسطاء والسذج السالمو الطوية فيرمون بها الأبرياء حسبما تلقوها ويقذفون بها حسبما قيل لهم وجوه العاملين المخلصين"[1].

ثم يقدم رحمه الله توجيهه للرجال يقول:" لا تثبت حكما في شيء من ذلك إلا بعد أناة وتبصر وبعد استقصاء البحث والتماس وجوه المعاذير الممكنة وإلا بعد أن تسمع من الخصم قوله فيما بلغك عنه وتعرف حجته ومستنده فيما رمي به.

من كانت عادته الإسراع في الحكم قبل استقصاء هذه الوجوه كلها كان ذلك منه دليلا على أنه لا ينشد الحق ولا يلتمس الصواب وإنما هو مغرض له مقصد دنيء يريد تحقيقه، فهو يجتنب كل ما عسى أن يحول دون بلوغه حتى لو ينتهي به البحث إلى تبرئة ساحة خصمه، لو سمع منه مستنده فاقتنع بصحته لكابر الحقيقة الملموسة ولحاول تمويه ما بدا له من صواب بالأضاليل ولا يرضى إلا بما يحقق أمنيته من إدانة خصمه لينال غرضه منه، وهذا طبع من اعتلت نفوسهم وأزمنتها الأمراض، ولا أحسب عاقلا يرضى لنفسه هذا الطبع اللئيم وهذه الخسة الدنيئة.

نفسك أيها العاقل أكرم من أن تسف بها إلى هذا الحضيض وأعز من أن تتركها فريسة لهذه الأمراض ومرتعا لهذه الأوبئة"[2].

والشيخ يضرب لنا نموذجا حسنا لتشخيص أدواء الأمة في مقالاته، كما يوجه إلى هذا الجانب إعمالا للعقول والتفكير، فينبه إلى هذا الجانب وأن الاشتغال به أولى مما لا يفيد، يقول:"أولى لهم قبل أن يرفعوا عقيرتهم بالحرية ويدعوا إليها ويبكوا ويرثوا لفقدها ويتشببوا بجمالها ويتغنوا بمحاسنها، أن يدرسوا نفسية أمتهم ويفحصوا مكمن الداء ومحل الفساد من نفسها، ويبحثوا عن الأسباب التي نشأت عنها تلك الأدواء، فيتعين لهم بعد ذلك الدواء الذي يجب أن يناولوه إياها"[3].

خلاصة: علم وإعمال عقل، وحذر من الاستعباد للأوهام والخزافات، أو الشهوات والنفس الأمارة بالسوء، ثم تركيز على أدواء الأمة ودراسة نفسيتها لأجل القيام بشأنها، بعيدا عن تدخل المتطفلين في مجال العلم، وعن التسرع في الأحكام.

العمل والبذل:

[1] التسرع في الحكم، الأمة، 50، نوفمبر 1935م.

[2] التسرع في الحكم.

[3] حرية العقل، المغرب 14، سبتمبر 1930م.

ولا ينفع العلم إذا لم يتبعه **عمل**، ولا قيمة لشعور لا يحرك المرء أو يبعث فيه الاجتهاد والبذل. يقول شيخنا رحمه الله: "كل شعور لم يكن باعثا على العمل الجدي والسعي الحثيث فليس بشعور، وكل انتباه للخطر لم يعقبه نهضة تدفعه فليس بانتباه، وكل مرض لم يبادر صاحبه إلى استئصاله بالأدوية الناجعة فغير شاعر به، وكل معرفة بمنفعة لم تكن باعثة على السعي لجلبها فهي دعوة باطلة!!!" [1]

ولابد من العمل بالعلم، والمعاهد إنما أسست للتعلم ومعه العمل بتلك المعارف والآداب، فتطبيقها ضرورة[2].

ف"كم من عالم خامل لو عمل بما يدعوه إليه علمه (اعتداد بالنفس، اعتماد عليه، طموح إلى المعالي والترفع عن السفاسف، التخلي عن الجبن والاستكانة، التحلي بالجسارة والشجاعة) لأدى للمجتمع أعظم خدمة، لكنه بقي والعدم سواء ما نفع ولا انتفع"[3].

و"كم من ذي فصاحة وبلاغة لو برز إلى ميدان العمل واستعمل فصاحته في الدعوة إلى الخير والنصح والإرشاد لأتى بالعجب العجاب، لكنه رأى أن هذه الأعمال هي مما يخص العلماء والزعماء خارجة عن دائرته وطوقه... وكم من أناس احتقروا أنفسهم واستهانوا بكفاءتها وضيعوا مواهبهم ورضوا بالحياة الدنيا فخسروا أنفسهم وخسرتهم أمتهم، فكانوا عليها عبئا ثقيلا إن لم يكونوا وبالا وويلا"[4].

والبدار البدار، واغتنام الوقت وعدم التسويف. والشيخ يقف وقفة عند التسويف وما ينتج عنه من تضييع، فيقول:"ليس كل ما نرى من تقاعس الناس عن واجباتهم وإعراضهم عن القيام بها وتقصيرهم المخل بها آتيا من عدم الاعتراف بها أو من العجز وعدم القدرة عنها أو من قلة الاكتراث بشأنها والاهتمام بها، ولا أن ذلك من قبل معاكسة الأيام ومناهضة الظروف وانتصاب العراقيل في طرقها ولا من فقدان الفرص وانقطاع الأسباب.

إنما العائق الحقيقي عن العمل الصاد عن القيام بالواجبات المقيد عن الحركة هو التسويف لا غير، فهو أعظم آفة تصيب الإنسان إذ تبيد عمره وتلاشي أوقاته وتذهب بحياته شعاعا ولا يستفيد منها شيئا بل تعود عليه بالوبال والخسران.

على الإنسان واجبات معينة إذا حاول أن يشرع في تنفيذ واجب منها استصعبته نفسه ميلا إلى الراحة فيتركه مؤقتا على نية أن يقوم به في وقت آخر وهكذا دواليك، فهو لا يفتأ عن سوف أعمل وسوف أقوم وسوف أقضي فيمتد تسويفه بامتداد الوقت إلى أن يفوت وتنسد أبواب العمل أمامه.

إن النفس مهما كانت ميالة إلى الراحة نزاعة إلى البطالة والهوى لا تقدر على مصادمة واجب متعين عليها فتنكره وتعرض عنه كليا ولكنها تجد في التسويف وانتظار الغد راحتها فتستلقي على هذا الفراش الوتير إلى أن تستيقظ وقد غربت شمس الغد وفات الوقت وإذ ذاك تقرع سن الندم على ما فرطت حين لا يجديها أسف ولا ندم، وليس لهذا التفريط من سبب سوى التسويف، فكم أباد من أوقات وضيع من فرص وفوت من مصالح وقضى على واجبات، فهو خدعة شيطانية يخدع بها النفوس الفائرة فتنخدع له

الفرص كثيرة ولكن الذين يعرفون أنها فرص قليل فهم المدرعون بالإرادة القوية والعزيمة الصادقة التي لا تعرف انثناء ولا إمهالا، أما المتسوفون فهم لا يشعرون بوجودها حتى تفوت".

ثم يخاطب المسوف الندمان على ما فرط فيقول:"إن ماضيك قد خسرته بدون شك وخرج من يديك بدون عوض ولكن إن فاتك العمل فيه فلا يفوتك أن تعتبر به وتتعظ، فتحملك العبرة على اجتناب التسويف الذي كبدك خسارة ماضي عمرك، وأعظم بها خسارة، وعلى تناول الدواء الذي يبيد هذه الآفة المهلكة وما دواؤها إلا الحزم المتين والعزيمة الصادقة والإرادة القوية والهمة العلية، فتكون قد

---

[1] الحياة السافلة وكيف التوقي منها، النور، 6، أكتوبر 1931

[2] فضلاء الزيتونة يخطون خطوة موفقة بتأسيس جمعية الرابطة الزيتونية، الأمة، 111، مارس 1937م.

[3] احتقار النفس، المغرب، 29، ديسمبر 1930م.

[4] احتقار النفس.

ضحيت بماضي عمرك وبعته مقابل هذه العبرة والموعظة التي حملتك على اجتناب الخسائر واكتساب الأرباح، وإذا قالوا قديما ما ضاع مال أكسبك موعظة، فنقول اليوم ما ضاع وقت أكسبك موعظة.

فاحذر من التسويف جهدك، فليس كل ما أمكنك اليوم يمكنك غدا، وإن اعترضتك اليوم صعوبة في عمل قصدت إنجازه فستعترضك غدا صعوبات، وإدا حال بينك وبينه سد واحد فسيحول بينك وبينه سدود، وإن شغلك عنه شاغل فستشغلك عليه شواغل"[1].

كما أن النفوس مجبولة على الميل إلى الراحة والدعة، فتدريبها على العمل مطلب ملح، وفي هذا يقول شيخنا رحمه الله:"ميل النفوس إلى جانب الراحة والهدوء والسكون ونفورها من كل ما يزعجها ويجهدها ويحملها على ركوب متن المصاعب والمشاق. وكم ينجم عن ذلك من أخطار وأمراض إذا أهمل شأنها وتركت وتمكنت واستفحلت وكانت القاضية"[2].

وإذ قد تدربت النفس على العمل وابتعدت عن التسويف، فمجالات العمل كثيرة، أشار الشيخ إلى كثير منها، كالتعليم، والصحافة، وإنشاء النوادي، وبناء المعاهد، وعمارة المساجد، وتأليف الكتب، وتنشيط الجمعيات، وفتح المدارس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... يضرب لنا الشيخ نموذجا لما ينبغي أن يكون عليه العمل فيقول:"نصرة الدين، والذوذ عن حياضه، وإعلاء كلمة الله، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء ما اندثر من السنن، وإماتة ما انتشر من البدع، ومن تعليم الجهال أمر دينهم، ومصالح دنياهم، ويقف بالمرصاد لكل من يتصدى لمحاربة الدين، أو إفساده، أو تعكير صفوه في الأحداث، أو إيذاء من ينتمي إليه، وينتصر له"[3].

ويشير إلى جهود للإصلاح يحسن القيام بها، يقول:"يتمنى [كل مسلم عاقل] لو أتيح له من أبنائه من ينهض به [الإسلام] ويرفع رأسه ويعيد له مكانته السامية ومركزه الذي كان له في نفوس المسلمين يوم كانوا به أعزاء شرفاء ملوك الأرض تعنو لهم الرؤوس إجلالا واحتراما.

قام المصلحون... يوضحون مزاياه ويشرحون تعاليمه ويحببونها إلى النفوس، وينفون عنه ما ألصقته به يد الخرافات والأوهام من بدع وضلالات، وما أدخلته عليه يد الإلحاد والزندقة من عوامل الهدم والخراب.

أنشأوا لذلك جرائد ومجلات، وألفوا كتبا قيمة تبحث في جميع مناحي الإصلاح وأسسوا نوادي وجمعيات لإلقاء الخطب والمحاضرات وقام الوعاظ والمرشدون في الجوامع والمجتمعات يحرضون العامة ويحثونهم على اتباع أوامر الإسلام والوقوف عند حدوده"[4].

ولابد من اتخاذ وسائل النهضة من العلم والمال والأخلاق سلما نحو الإصلاح الاجتماعي[5].

مع أن المقياس ليس هو وجود الوسائل بل استعمالها في مقاصدها، يقول الشيخ:"المقياس الصحيح الذي يجب أن يقاس به الرجل، فقيمته الحقيقية هي ما يعمله لا ما يملكه من وسائل العمل، فلا قيمة للعالم ولا اعتبار له إلا إذا توسل بعلمه إلى إصلاح نفسه باستكمال فضائلها وإلى إصلاح أمته وخدمة وطنه بما يوفر من سعادتهما وهنائهما. ولا اعتبار للغني إلا إذا كان ينفق ماله في المكرمات في جلب كل صالح يستطيعه لأمته ودفع كل ضار عنها، ولا قدر لذي الجاه إلا إذا جعل جاهه وقفا لنفع البلاد والعباد ويقال مثل هذا في ذي الشهرة وذي السلطان وكل ذي وسيلة من هذا النوع"[6].

---

[1] التسويف ومآل المفرطين، النور، 5، أكتوبر 1931م.

[2] التشاؤم، المغرب، 36، فيفري 1931م.

[3] "من هم حماة الدين ومن هم الخاذلوه ؟"، الأمة، 39، أوت 1935م.

[4] دعاة الإصلاح وماذا يجب عليهم، المغرب، 34، فيفري 1931م.

[5] هل نحن مستيقظون؟ وادي ميزاب، 38، جويلية 1927م.

[6] إنما الرجال بأعمالهم، لا بما يملكون من وسائل العمل، الأمة، 96، أكتوبر 1936م.

ولكل مجال أكفاؤه، يقول الشيخ:"فإذا اختلط الحابل بالنابل، وتجاوز كل حدوده فقعد الفلاح على منصة القاضي وتطاول التاجر على مقام الإفتاء وافتأت الجاهل على مشاكل العلم وتصدى الألكن للمحاماة والأعمى للعمليات الجراحية والمداواة، وادعى كل من هؤلاء أنه الكفء القدير والعلامة الشهير، فهناك الفوضى الاجتماعية وهناك الهرج والمرج والفتنة والفساد والخراب والدمار..."[1]

ولابد من التقويم، والشيخ رحمه الله كتب مقالا مهما في هذا الجانب، حاثا الأمة على القيام بذلك، فلا بد من:" موقف حازم ينير السبيل للسائرين فيريهم الحق حقا والباطل باطلا، ومن ضل بعد ذلك فأبعده الله لأنه ضل عن عمد".

فيحاسب *العالم* :"ماذا عمل فيما علم، هل قام بواجبه نحو نفسه ونحو أمته ووطنه كما فرضه الله عليه وأدركه عن يقين وهل أخلص في عمله وأدى الأمانة التي تحملها أحسن أداء"، ونحاسب *الغني*:" فإن وجدناه في ماله حقا معلوما للسائل والمحروم وللنائبات النازلة على الأمة وللمشاريع الخيرية، كان جديرا باحترامنا حريا بكل تقدير واعتبار"، و"نقف من ذي *الجاه* مثل هذا الموقف فإن وجدنا جاهه مرصودا للنفع العام يعين به الضعيف وذا الحاجة ويقضي حوائج إخوانه المسلمين لوجه الله لا يريد منهم جزاء ولا شكورا بوأناه من نفوسنا أعز مبوأ...ونقف من ذي *الشهرة* موقف الباحث المنقب فنبحث عن هذه الشهرة من أين اكتسبها فإن كانت من مواقف شريفة وقفها إعزازا لدينه وخدمة لأمته أو من تضحيات ضحى بها في سبيل الله أو من جهاد في قضية وطنية تصدى لها وأخلص فيها العمل إلى النهاية، أنشدنا بذكره وزدنا الشهرة نشرا"[2].

والشيخ لا يغفل أن يحذر من **عيوب قاصمة في مجال العمل والإصلاح**، منها: المصلحة الشخصية، ومنها التنافس والتحاسد في الميدان، وكيف التعامل معه.

فقد وقف الشيخ طويلا وفي مقالات متعددة عند مرض خطير هو المصلحة الشخصية، يقول:"هي المعول الوحيد الذي يهد حصون المشاريع، ويعدم في طرفة عين كل ما بذله العاملون من أتعاب، وما قدموه من ضحايا في سنين، فما خالطت مشروعا إلا أفسدته، ولا صاحبت عملا إلا أبادته، فالأعمال جارية والإصلاحات قائمة ما دامت المصلحة الشخصية بمعزل عنها.

فالنفوس لم تتعود تقديم مصلحة ما على مصلحتها لتشبعها بالأنانية وحب الذات، تجمعات، لكن الناتج في الميدان يبين مسافة الخلف بين القول والفعل: يتساءل الإنسان: أين هذه الغيرة والإخلاص والوطنية وأين ثمرة المساعي والاجتماعات وكيف تبخرت ولم يبق لها أثر، وسرعان ما يزول اندهاشه إذا علم أن المصلحة الشخصية أدخلت أصبعها في المسألة ولعبت هنالك دورا هاما.

إذا رأيت مشروعا قائما على أساس متين أو إصلاحا سار في منهج قويم لم يعتره فشل أو انحلال فاعلم أن المصلحة العامة تمحضت هناك وكانت هي المسيطرة عليه والمتحكمة فيه وقلما يتفق ذلك. أو كان ضمن المصلحة العامة مصلحة شخصية مقصودة أولا وبالذات واتخذت المصلحة العامة جسرا يتوصل به إلى الغرض المقصود، فهنا نرى مساعي تبذل وجهودا تضحى وأوقاتا تصرف وأموالا تبذر في سبيل الغرض الخاص تحت ستار المصلحة العامة، لكن سرعان ما يرتفع الستار وينكشف السر إذا انفصمت الروابط التي كانت تجمع بين المصلحتين إذ يتوقف كل سعي وتسكن كل حركة فتبقى المصلحة العامة إذ ذاك فريسة ملقاة على مذبح الأنانية لأن الباعث على خدمتها قد زال إما لإياس العامل من الحصول على غرضه فلا حاجة إذ ذاك إلى السعي وإما لأنه قد ناله بعد وحصل عليه، ومن العبث حينئذ الاستمرار على العمل والغرض الذي لأجله قام قد حازه واحتواه...

---

[1] المتطفلون على موائد العلماء، الأمة، 102، ديسمبر 1936م.

[2] إنما الرجال بأعمالهم لا بما يملكون من وسائل العمل، الأمة، 96، ؟؟؟

إذا أشربت نفس إنسان حب مصلحته الشخصية آثرها على كل مصلحة سواها وأصبح حيوانا مفترسا يأتي على كل ما يعترضه لا يرعى ذمة ولا عهدا ولا شرفا ولا يعترف بحق ولا بواجب ولا يحترم شخصا ولا جماعة ولا أمة لا يعترف بوجود شيء غير غرضه ولا يطيع آمرا غير شهوته...مصلحته الشخصية قد أعمت بصيرته ووقفت سدا حاجزا يمنع النور من النفاذ إلى قلبه... مرتعها ومحط رحالها هي النفوس التي لم تتشبع بروح الدين الصحيح ولم تتزود بالغيرة الصادقة والوطنية الحقة... أغراضها تتسع ورغباتها تمتد إلى ما وراء حدود الدين والحق والواجب فتصطدم بالمصلحة العامة في ناحية، وبمصالح الآخرين في ناحية أخرى"[1].

ومن تلك الأمراض مرض التحاسد، يذكر الشيخ صنفا معينا بتركيز وتشخيص فيقول إنهم:"لا يعملون ويحسدون العاملين والتفاف عقلاء الأمة بهم، ولا يجارونهم في مضمار الصالحات، كبر عليهم أن يبقوا في الحضيض محرومين...بون شاسع بينهم وبين المتفوقين في المدارك والمواهب والأعمال والنتائج والمنازل والمقامات...يلجؤون إلى الانتقام من محسوديهم للتخلص من العناء من وجودهم.

عاطفة طغت ونفس أمارة بالسوء، لمجرد حزازت وإحن حاقتها في النفس ظنون وأوهام... لأجل هذه الخسائس والتوافه يضيع الإنسان أعز شيء يملكه في الوجود: دينه وشرفه وعرضه.

الدين هو الشيء الوحيد الذي يجب أن يفدى بكل عزيز ويراق على جوانبه أنهار الدماء دون أن يمس بأذى أو تصل إليه يد عابث به، أضحى عرضة لكل تافه، وفداء لخيال واهم يقدم عن رضى واطمئنان"[2].

ثم يوجه الخطاب إليهم فيقول:"من عجز عن مجاراة العاملين في مضمار الصالحات فليرض بما قسم الله له، وليلزم حدود طاقته ووسعه، ويدع المجال لأصحابه. وإن أبى إلا الخروج عن دائرته، فليلذ بالهدوء والسكون وليكن برا تقيا ويدع الناس وما اختاروا لأنفسهم، ولا يتعرض لأحد بسوء ولا يقعد بكل صراط يوعد ويصد. وإن تعدى كل طور وثقب كل سور وأبى إلا أن يكون خصما للعاملين وعدوا لدودا للمصلحين فليكن شريفا في خصومته عاقلا في عداوته، ولا يبلغ إلى الإسفاف والدناءة وخبث النفس إلى الانتقام"[3].

كل هذا تنبيه للعاملين أن لا يقعوا في هذه المطبات التي تحيق بالدين والأمة.

والحياة صبر وجهاد، فما كل ما يتمنى المرء يدركه، ولكن بالصبر تحل البركات وتتحقق الأعمال، ونجني الثمار.

خلاصة: فلابد من تحويل المعارف إلى أعمال، والمبادرة بدل التسويف، والبذل بدل الكسل، ومجالات العمل كثيرة، ولكل مجاله أكفاؤه، ومع العمل التقويم، وحتى نحذر من المصلحة الشخصية والشحناء في الميدان، فالقصد واحد، والعمل أكبر من أن نتخاصم فيه.

أسلوب الشيخ في خطابه:

سلك الشيخ طريقة في إبلاغ خطابه وإقناع من يقرأ له حسنةً، أساسها المقارنات، والواقعية في التناول والتشخيص، والربط بالتاريخ والتأسي به، مع خطاب موجه فيه تحميل المسؤولية.

- المقارنات: فيقارن الشيخ بين الحيوان وذي الهمة السافلة، فالثاني أحط والحيوان نافع ذي قيمة[4]، ويقارن بين الأمم في استثمار العلم والرقي به، وبين أمم البطالة واستحكام الجهل بها[5]. كما يقارن بين الشعور بالجوانب المادية التي يشعر بها الإنسان عموما وبين

[1] المصلحة الشخصية، المغرب، 32، جانفي 1931م.

[2] الانتقام السافل، النبراس، ع5، أوت 1932م.

[3] الانتقام علله وأسبابه (تابع)، النبراس، 6، أوت 1932م.

[4] الحياة السافلة وكيف التوقي منها، النور، 6، أكتوبر 1931

[5] الشعور بالخطر باعث على درئه، النور، 8، نوفمبر 1931م.

الشعور بالجوانب الأدبية التي لا يشعر بها إلا القليل، فثمة حرص على المادة وبرودة عن الأدب[1]. ويقارن بين قوة الإحساس بأزمة الفقر وضعف الإحساس بأزمة الجهل مع أنها أشد وأنكى[2].

- الواقعية: ولعل أبرز جانب نشهده في مقالات شيخنا عدون رحمه الله تعالى الواقعية التي اتسمت به تحليلاته، فكان ينطلق من واقع الأمة ويشخص أحوالها، ويتتبع أمراضها، باحثا عن الأسباب مصورا للأعراض، واصفا للحلول، مع أسلوب أدبي راق، وولوج إلى دخائل النفوس وسجاف القلوب، ومن أمثلة ذلك ما ذكر سابقا حول المطمح الأسمى وكيف يدقق الشيخ في النوايا وما ينتج عن المقاصد السلبية، وكذا جوانب العمل يعددها، مما هو متوافق مع واقع الأمة واحتياجها.
- الربط بالتاريخ والتأسي به: نلمح ذلك جليا حين تناول كتاب قناطر الخيرات بالتلخيص بمناسبة ختم الشيخ بيوض رحمه الله لمدارسته في المسجد، فأهاب الشيخ بقيمة التاريخ وحث الشباب على استنطاقه[3]، وذلك بالتعرف على الأعلام الأماجد والتشبع بالأصالة، والبناء على ما بنى الأوائل.

وأثناء عرضه لعلاج مرض الإياس، يشير إلى ذلك فيقول:" ترديد النظر في تاريخ الأمم الغابرة والحاضرة ودرس حياتها وأطوارها وتقلباتها. وأعظمها أمة الإسلام،...تتبع تاريخ هذه الأمة في خروجها من العدم إلى الوجود وفي نشأتها وتطورها ودرس مسيرة رجالها العظام وتحليل نفسياتهم، يملأ القلب إيمانا ونورا فلا يتركان فيه لضعف العقيدة ولظلمة الإياس أثرا ويستحيل عقلا أن يجتمع الضعف والقوة، والظلمة والنور في محل واحد... النبع الصافي الذي ورده أباؤنا وأجدادنا الأولون وهم عبدة أوثان متفرقون فقراء جهال منحطون فصدروا عنه مؤمنين متحدين أغنياء علماء في أعلى منازل الكمال".[4]

- تحميل المسؤولية: وذلك بمواجهة الإنسان ومحاولة هزه من أعماقه بخطابات وسهام قلما تخطئ القلوب. ومن أمثلة ذلك تلك الصرخة المدوية التي أبلغها آذان الشباب:"أترضى أن يخيب فيك رجاء الراجين في حياتك وتطيش آمال المؤملين في مستقبلك [أيام كنت في المدارس والناس ينظرون فيك المستقبل] أترغب عما زودتك به المدرسة من غذاء روحي لتصمد في حياتك لعوادي الأيام وهجمات الكوارث والخطوب وتزهد فيما سلحتك به من أخلاق ومعارف لتجابه بها كل عدو وتدفع بها كل مغير وترد بها عن أمتك كل من أرادها بسوء وقصدها بشر؟

أتلذ لك حياة ويهنأ لك طعام ويسوغ لك شراب ويطمئن لك جنب ودينك الذي به سعادتك ينقصه أعداؤه من اطرافه، ويطمس معالمه الجهل والبدع كما تطمس ظلمة الليل ضوء النهار، وأمتك التي عليها اعتمادك وبها قوام حياتك تسام الخسف ويأتيها الموت من كل مكان بما نالها من تدهور في الأخلاق كبير وضعف في جميع النواحي عظيم، وفيك قدرة تستطيع بها خدمة دينك وإسعاف أمتك حسبما تسمح به مواهبك واستعدادك فضننت بها عنهما ونزعت إلى الدعة والسكون، وأخلدت إلى الأرض واتبعت هواتك، وآثرت السلامة الموهومة في الراحة والانزواء على السعادة المحققة في ركوب الأخطار والتمرس بالآفات وأنت تعلم أن الراحة الكبرى لا تنال إلا على جسر من التعب، وأن السعادة العظمى دونها قلل الجبال وخوض المخاطر والأهوال...

---

[1] الشعور بالخطر باعث على درئه.

[2] الأزمتان الجهل والفقر، النور، 20، فيفري 1932م.

[3] الاحتفال بختم كتاب القناطر، الأمة، 163، أفريل 1938.

[4] من أمراضنا الاجتماعية، آفة الإياس، الأمة، 89، سبتمبر 1936م.

قد تقول: إتك تهيب بنا للاضطلاع بأمر خطير يشق الاضطلاع به، ولرفع أثقال تنوء بالعصبة أولي القوة، ولا يقوى عليها إلا المدججون بالسلاح الكافي لخوض هذا المعترك اللجب المزودين بقوة وعتاد يكافئان ما يقابلهما من بؤرة الفساد المنتشر وقوة الشر المسيطر، ونحن محرومون من هذه القوى العتيدة... إننا لا نكلفكم شططا ولا نطالبكم بأمر يخرج عن طوقكم لا ندعوكم للاضطلاع بشيء يتوقف القيام به على حصول القوى المادية التي تتوهمونها والتي نحن بعيدون عنها بعد المشرقين، فليس ذلك من غرضنا، ولا من مشمول دعوتنا. إنما ندعوكم لحمل تكاليف يتوقف حملها على قوتين روحيتين هما في متناول كل من مد يديه إليهما بصدق: هما قوة الإيمان وقوة الأخلاق، وإن شئت أدمجت الثانية في الأولى فقلت قوة الإيمان.

هي القوة التي أدرع الرسول الأعظم والأمة التي استلمها يوم خرج إلى العالم وحيدا لا جيش يحميه فقيرا لا مال يسنده أعزل لا سلاح يظاهر به، فدوخ الجزيرة الثائرة وأخضع لأمره العرب العرباء والجاهلية الجهلاء وجاء بعده أصحابه مدرعين بهذه القوة فدكوا عروش الأكاسرة والقياصرة ووطدوا في الأرض ملكا ما كان يحلم به ابن أنثى ولا ينبغي لأحد من بعدهم"[1].

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله رحمه الله يخاطب الخامل دافعا له نحو الجد والعمل:"كيف رضيت لنفسك هذا الخمول المهين، وبقيت على هذه الحالة التي لا تتفق مع كرامتك، وتقاعست عن العمل لرفع مستواك إلى محله اللائق- كيف تجاهلت هذه القوى الجليلة واستصغرت شأنها العظيم- كيف —وقد توفرت فيك واجتمعت-لم تؤثر في حياتك الأثر المطلوب وواحدة منها كافية لإزعاجك وإثارة ساكنك وحملك على إصلاح حالك وترقية شأنك.

من كفران النعم تجاهل تلك المواهب التي لم تمنح لك إلا لتكبر من شأنها وتعمل على استثمارها لخير نفسك وإسعادها، ومن أكبر الشقاء أن تستهين بالقوى التي عليها مدار حياتك وتبقى والمحروم منها سواء فتقعد مذموما مدحورا. قد أسأت إلى ربك (عدم شكر النعمة) وإلى نفسك (أذللتها وأنقصتها) وإلى أمتك (غنية قادرة لكنها تعاني الفقر والجهل والشقاء وفاز فيها أناس من غيرها فاقوا أبناءها في الصناعة والفن والرقي العقلي والتفكير المنتج).

تدارك بقية حياتك، واستشعر في نفسك كرامتك وعظم ذاتيتك وخطر شأنك وبحر همتك فيحكمك ذلك على الاعتماد على نفسك واثقة بكفاءتها والاعتداد بمواهبك"[2].

خاتمة:

هذه بعض اللفتات حاولنا تجميعها وترتيبها تظهر أن الشيخ عدون رحمه الله تعالى كان يقصد إلى صناعة الرجال وبعث الشباب، والمطلع على في مقالاته الكثيرة يجده رحمة الله عليه نعم الطبيب لأمراض أمته، وخير مخطط لنهضتها، يقف على الأدواء، ويخاطب النفوس، ويحيي القلوب، يحمل المسؤولية، ويهيب بالإنسان أن يكون هملا يرعى بلا مبدأ ولا طموح، ولا علم، ولا عمل، ضاربا له الأمثال، ومصنفا له أوجه المقارنات، حاثا إياه على النظر في التاريخ، واستشراف المستقبل. وبمثل ذلك صنع الرجال، وإحياء الإنسان.

ولعل مما يوصى به في هذا المقام أن تطبع مقالاته كلها في كتاب، يعطي الفرصة للشباب أن يطلعوا على هذه الكنوز، ويكشفوا عن تلك الدفائن، ويقتدوا بسلفنا الصالح، ويعلوا فوق ما بنوا. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

محمد داود تمزغين

بريان، يوم: 2009/04/21م.

---

[1] إلى الشباب الحي: صرخة مدوية يصرخ بها مثال الشباب، الأمة، 82، جويلية 1936م.

[2] هذه خصائصنا فهل آن لنا أن نعرف كيف نستثمرها، النور، 18، جانفي 1632.